الشرفاء في المجتمع المغربي خلال القرنين8 و9هـ/14و15م

من خلال كتاب: " إسماع الصّم في إثبات الشرف من قبل الأم" للمراكشي القسنطيني الأكمه و "إسماع الصم في إثبات الشرف للأم" لابن مرزوق الحفيد التلمساني

د/نصر الدّين بن داود / قسم التاريخ /جامعة تلمسان
bend_nasr@yahoo.fr

ملخص البحث:

يعالج هذا البحث موضوع طبقة الشرفاء ومنزلتهم في المجتمع المغربي خلال القرنين8و9هـ/14و15م ليبرز طبيعة وميزة هذه المكانة التي حظي بها الشرفاء من خلال كتاب "إسماع الصم في إثبات الشرف من قبل الأم" للمراكشي القسنطيني الأكمه المتوفى سنة 807هـ/1404م ويليه "إسماع الصم في إثبات الشرف للأم" لابن مرزوق الحفيد التلمساني المتوفى سنة 842هـ/1439م.وقد حققته الباحثة المغربية الأستاذة مريم لحلو من جامعة وجدة بالمملكة المغربية.

لقد أخذت نازلة النسب الشريف من قبل الأم جدالا علميا بين فقهاء حواضر بلاد المغرب، فمنه من أنكرها، ومنهم من أثبتها، ومنهم من وقف بينهما، وهذا ما يدل على الحراك العلمي والتواصل الفكري بين مختلف حواضر المغرب. إلا أن الإمامين المراكشي الأكمه وابن مرزوق الحفيد قد فصل فيها بتقديم حجج أحقية النسب الشريف من قبل الأم من الكتاب والسنة وآراء العلماء وأدلة الرأي والعقل.

وكانت هذه المنزلة الخاصة للشرفاء تقتضي حقوقا ذات أبعاد أخلاقية واجتماعية، ناهيك عن الأبعاد السياسية، خاصة بعد انهيار الدولة الموحدية وقيام ورثتها من المرينيين والزيانيين والحفصيين. وهذا التأليف يدل على إحياء مكانة هذه الطبقة في المجتمع.

ترجمة الملخص:

the saints on the society of maghreb during the8 9 th century H/14 15thcentry N Y on the bouks «Ismae alsom fi itbate al charaf min qabeale el oum » by al morakshi al qasanetini al akmah and «Ismae al som fi itbate al charaf lil oum » par ibno marzouk el hafid tilimsani by ibn marzouk tilimsani

This research highlights on the subject of saint class and its role on the society of maghreb during the 8 and 9 th century H Y /14and 15 th centure N Y one with an emphisis on the book witch run as follows

- «Ismae alsom fi itbate al charaf min qabeale el oum »

By al marakchi al qasanetini who in 807m.c/1404cc

- «Ismae al som fi itbate al charaf lil oum » by ibn marzuouk died in 842 mc/1439cc

The problématic of the saints had pawed the way for a huge scientific lebate between the versatib thinkers of the main city of maghreb.

some of them had rejected this phenomen; others had been for it and the others had taken the middle of the road. this means that the scientific progress was seeing its glorious times on this region on the other hand , Al Murakshi and Ibn Merzuk had sent the last word on this affair rebying on strong argements

The « saints » affair demanded some social moral and political rights.

This research tries to show the importance of the class on this society

تقديم:

ساهم علماء المغرب الأوسط في الإنتاج الفقهي بمختف أصنافه بصفة عامة، وبصفة خاصة ومميزة في تدوين فتاوى وأحكام المسائل الفقهية الطارئة، أو ما يصطلح على تسميته بـ "فقه النوازل".[1] وأكثر من ذلك هو جمع وتدوين فتاوى هذه النوازل أو أدب النوازل في كتب خاصة بها. وكان الامتياز في ذلك ليحيى المازوني المتوفى سنة 883هـ/1478م في كتابه " الدرر المكنونة في نوازل مازونة".[2] وأحمد الونشريسي المتوفى سنة 914هـ/1509م في كتابه " المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب".[3] وكتاب «إسماع الصم في إثبات الشرف من قبل الأم" للمراكشي القسنطيني الأكمه المتوفى سنة 807هـ/1404م،[4] ومعه كتاب " إسماع الصم في إثبات الشرف للأم " لابن مرزوق الحفيد المتوفى سنة 842هـ/1439م[5] والمحقق من قبل الأستاذة مريم لحلو من جامعة وجدة المغرب والذي هو محور هذا البحث في بابه السادس: في مسائل حقوق الشرفاء على الناس وحقوق الناس على الشرفاء وما يتعلق بذلك للمراكشي الأكمه ثم مع نص جواب ابن مرزوق الحفيد.

وهذه المقاربة التاريخية الاجتماعية تنطلق من الإشكالية الآتية: لقد كان للشرفاء منزلة خاصة في المجتمع المغربي خلال القرن التاسع الهجري(9هـ) الخامس عشر الميلادي 15م.فما طبيعة ومميزة هذه المنزلة التي حضي بها الشرفاء في بلاد المغرب خلال هذه الفترة؟ والتساؤلات المتفرّعة عنها:

- من هم شرفاء بلاد المغرب؟
- ما هي حقوق الشرفاء على الناس؟

- ما هي حقوق الناس على الشرفاء؟

الإجابة عن هذه الإشكالية والتساؤلات ستكون من خلال هذه الدراسة.

1-التعريف بالكتاب ومؤلفيه:

أ -تعريف الكتاب:

يقع الكتاب في 340 صفحة من الحجم المتوسط مسطرة 14 x 20,5سم، عنوانه: إسماع **الصمّ في إثبات الشرف من قبل الأم لمحمد المراكشي الأكمه ويليه إسماع الصم في إثبات الشرف للأم لمحمد بن مرزوق الحفيد**، تحقيق ودراسة: الدكتورة مريم لحلو، وهي باحثة مغربية من جامعة محمد الأول بوجدة بالمملكة المغربية، تشتغل في تحقيق تراث المغرب الإسلامي. قدم لها هذا الكتاب أستاذاها، الأستاذ الدكتور أحمد حدادي وهو أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الأول بوجدة، ورئيس المجلس العلمي بفجيج، والأستاذ الدكتور مصطفى الغديري أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الأول بوجدة، ومسؤول وحدة البحث والتكوين في التراث الأدبي الأندلسي المغربي.[6]

ب -التعريف بالمؤلف محمد المراكشي القسنطيني الأكمه:

هو محمد بن عبد الرحمن المراكشي القسنطيني، قال ابن قنفد في وفياته: «أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن المراكشي الضرير من أهل بلدنا ببونة» بعنابة،[7] يكنّى بالأكمه أو الكفيف أو الضرير بسبب ولادته أعمى يوم 27جمادى الآخير739هـ/1338م. أخد عن والده أبي زيد عبد الرحمن المراكشي بمراكش وبقسنطينة عن الإمام أبي علي بن حسن بن خلف الله بن باديس وحضر بتونس مجالس الإمام محمد بن عرفة المتوفى سنة 803هـ/1399م. فهو الفقيه الحافظ، والإمام المدرّس، وعالم اللغة والشعر من مؤلفاته إضافة إلى إسماع الصمّ في إثبات

الشرف من قبل الأم، أرجوزة في المنطق والأرجوزة المراكشية في البيان والإعلام بفضل الصلاة على خير الأنام.

وكانت وفاته سنة 807هـ/1404م. [8]

ت –التعريف بالمؤلف محمد بن مرزوق الحفيد:

يعد من أكبر علماء أسرة بني مرزوق، هو محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق يعرف بالحفيد، فهو حفيد ابن مرزوق الخطيب، ولد بتلمسان سنة 766هـ/1364م وبها نشأ وحفظ القرآن الكريم وتعلّم المبادئ الأولية اللغوية والدينية عن والده الشيخ أحمد، ثم أخذ عن علماء تلمسان، منهم :الإمام أبو محمد عبد الله الشريف المتوفى سنة 792هـ/1390م، والشيخ سعيد العقباني المتوفى سنة 811هـ/1408م، والشيخ أبو إسحاق إبراهيم المصمودي المتوفى سنة 805هـ /1402م، ثم رحل إلى تونس والتحق بمجلس العلامة محمد بن عرفة المتوفى سنة 803هـ/1399م وأبي العبّاس القصار التونسي المتوفى بعد 790هـ/ 1388م، ثم رحل إلى فاس وجالس علماءها منهم أبي زيد عبد الرحمن الماكودي المتوفّى سنة 787هـ/1385م وأبي عبد الله محمد بن حياتي المتوفى سنة 788هـ/1386م ثم رحل إلى المشرق؛ بالقاهرة التقى بعمر البلقيني المتوفى سنة 805هـ والعلامة عبد الرحمن بن خلدون المتوفى سنة 808هـ/1405م، ثم زار علماء الحرمين وجلس إلى الفقيه المحدّث أحمد بن حجر العسقلاني المتوفى سنة 852هـ/1448م.

يعود ابن مرزوق الحفيد إلى تلمسان ومنزلته العلمية تنمو وتتطور حتى نال الإجازة من علماء الأندلس؛ انتصب للتدريس لمدّة خمسين (50) عاما حتّى وافته المنيّة بتلمسان عام 842هـ/1439م. من تلامذته، الشيخ عبد الرحمن الثعالبي المتوفى سنة 875هـ/1471م، ونصر الزواوي دفين القدس عام 826هـ/1422م، ولحسن بن مخلوف الراشدي المتوفّى سنة 867هـ/1464م ويحي المازوني، المتوفّى سنة 883هـ/1478م.[9]

لقد أجمعت المصادر على سعة علمه ورسوخ نظرته، وحسن بيانه واتساع فقهه للمذاهب الفقهية عامة ومذهب الإمام مالك خاصة، فهو المجتهد المفتي والمفسر والمحدّث، وهو عالم النحو والبيان وجماله.

ومما يدلّ على عظم منزلته العلمية هي ثروته العلمية، فقد ترك مصنّفات في شتّى العلوم والفنون حيث بلغت أربعين (40) مؤلفا ضاعت غالبيتها، منها في الفقه شرح مختصر خليل وتصحيح مسائله بالنقل والدليل، حاشية مختصر سعد التفتازي في البلاغة والبيان، والمفاتيح المرزوقية في علم العروض، والدليل المومي في ترجيح طهارة الكاغد الرومي في فقه النوازل والمتجر الربيع في شرح صحيح البخاري في علم الحديث، وتفسير سورة الاخلاص، وكتابه الذي هو موضوع الدراسة: إسماع الصمّ في إثبات الشرف للأم.

ث –مضمون الكتاب:

الكتاب الأول:

إسماع الصّمّ في إثبات الشرف من قبل الأم لمحمد المراكشي القسنطيني، كتبه كجواب عن سائل لا يمكن مخالفته، سنة 801هـ/1399م، وقد رتّبه على مقدّمة وستة أبواب وهي في 127 صفحة:

الباب الأوّل: في الاستدلال من القرآن الكريم على إثبات الشرف من قبل الأم.

الباب الثاني: في الاستدلال من السنة على ذلك

الباب الثالث: في الاستدلال من الإجماع على ذلك.

الباب الرّابع: في الاستدلال من النظر على ذلك.

الباب الخامس: فيما يحتج به نُفاته والجواب على ذلك.

الباب السادس: في مسائل حقوق الشرفاء على الناس، وحقوق الناس على الشرفاء وما يتعلّق بذلك.[10]

الكتاب الثاني:

جاء كجواب عن سائل قال: رجل أتبث أنّ أمّه التي ولدته شريفة النسب، فهل يثبت لهذا الرجل شرف النسب من جهة الأم، ويحترم بحرمة الشرفاء ويندرج في سلكهم أو لا؟ وقد ضمّ 32 صفحة غير مقسم، وإنّما قدّم له بالتّعرض لفتاوى علماء المغرب لهذا الموضوع مع تأييد صحّة النسب من قبل الأمّ، لكن دون عرض الأسانيد والأدلّة، فتطرق للأسانيد والأدلة في عشرة أوجه، وقد أشار في بداية الجواب إلى المكانة الاجتماعية لذوي النسب الشريف وكذلك في الدليل العاشر.[11]

لقد أخذ موضوع النسب الشريف من قبل الأم جدل علمي بين علماء حواضر المغرب الإسلامي، ففي سنة 726هـ/1326 م أنكر القاضي التونسي أبو إسحاق بن عبد الرّفيع المتوفّى سنة 734 هـ/ 1333م صحة إثبات الشرف من قبل الأم[12]، ثمّ علّق الإمام ابن عرفة المتوفّى سنة 803هـ /1399م على هذه المجادلة دون أن يفصل في الأمر، وإنّما أبدى ميلا نحو شيخه الشيخ ابن عبد السلام المتوفى سنة 749 هـ/1348م الذي يصرّح بتخطئة هذا الرأي ويقف إلى الرأي القائل بأنّ نسب الولد يكون للأب لا للأم.[13]

أمّا علماء بجاية فقد اعترضوا على هذا الإنكار وردّوا على الشيخ ابن عبد الرّفيع، ومنهم الشيخ ناصر الدّين المشدالي المتوفى سنة 731هـ/ 1331م وتلميذه الحسن البجاوي المتوفى سنة 754هـ/1353م.[14] وقالوا بصحة اثبات الشرف من قبل الأم.

أما علماء تلمسان ومنهم أبي عبد الله المقّري المتوفى سنة 758هـ / 1357م وأبي عبد الله الشريف المتوفى سنة 771هـ/ 1369 م وسعيد القباني المتوفى سنة 811هـ /1408 م فقد قالوا بالرأيين، رأي فقهاء تونس ورأي فقهاء بجاية، دون الفصل أو الميل إلى طرف معين، وتبعهم علماء فاس على التوجه نفسه ومنهم أبو الحسن علي الصنهاجي الأشهب المتوفى

عام791 هـ/1389م.[15] فهذا الموقف من هذه المسألة المطروحة احتمل الرأيين دون الميل أو ترجيح رأي على رأي.

وقد بقي الأمر على هذا الحال إلى أن تم الفصل فيها من قبل الفقيهين الأكمه والحفيد، ومن هنا نتساءل هل الموقف هذا كان من باب الواجب العلمي والشرعي؟ أم هناك دوافع سياسية وراء ذلك؟ لا أظن ذلك مع ابن مرزوق الحفيد الذي كان يفضل العمل مع طلبته ويؤثر ذلك على أية علاقة أو وساطة مع السلطان، وذلك اقتداء بجده الأكبر الإمام الشيخ محمد بن مرزوق بركة بيت المرازقة الذي كان يزوره السلطان يغمراسن بن زيان في مسجده، ويتحفظ على مقابلته بالإكثار من النافلة أو الانصراف.[16] وهذا خلاف لجده الأول وهو الخطيب الذي كانت له علاقات مع سلاطين بني مرين وبني زيان وبني حفص وبني الأحمر. والإمام الحفيد صنف بزعيم السلفية السنية، كل هذا يرجح دافع التأليف كواجب شرعي وعلمي من باب عدم كتمان العلم والصدع بالحق، أما من جهة الإمام المراكشي القسنطيني فجوابه جاء عن سؤال صدر عن شخص لا يمكن مخالفته كما ذكر ذلك وهذا ما يرجح أن يكون صاحب سلطة ونفوذ، أو من أعيان القوم والشرفاء.

2-شرفاء بلاد المغرب:

النسب الشريف هو أن يعد الرجل في آبائه أشرافا مذكورين تصل سلسلتهم إلى آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم أجمعين، ثم يضاف لهم من وصل نسب أمه إلى آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والشرفاء في الصدر الأول هم كل من ينسب إلى آل البيت حسنيا أو حسينيا أم عقيليا أم علويا من أولاد علي بن أبي طالب أو بني جعفر أو بني العباس.

وإذا كانت للتطورات التاريخية الأثر البالغ في التوزيع الجغرافي للشرفاء عبر المراحل التاريخية، فببلاد العراق يعود الانتساب الشريف لبني العباس، وبمصر يعود لكل علوي خاصة عندما

حصر الفاطميون النسب الشريف في ذرية الحسن والحسين فقط، لإعطاء شرعية نسبهم الفاطمي، وفي بلاد المغرب فإن النسب الشريف عادة ما يرتبط ويعود إلى الأدارسة، بدء من انتقال إدريس الأول إلى بلاد المغرب سنة 169 هـ/ 786م ثم التحاق سليمان به.

وقد كان الحرص على هذا النسب الشريف، لأولويته في إعطاء شرعية السلطة حسب الظروف والتطورات التاريخية السياسية، أما اجتماعيا يكون لهم حق إكرامهم و توقيرهم وإيثارهم وذلك مرده قرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم مصداقا لقوله تعالى: **﴿إِنَّمَايُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾**(17)

وفي قوله تعالى كذلك : **﴿ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُور﴾**(18)

فمع نهاية القرن 2هـ/8م انتشرت ذرية الأدارسة والسليمانيين ببلاد المغرب، وقد تناكحت وتناسلت عبر العصور المتتالية بنسبة كبيرة، وبنسبة أقل المحمديين أصحاب ذي النفس الزكية، والموسيين بني موسى القادريين، والعريضيين أصحاب علي العريضي ثم الكاظمين أصحاب مرسي الكاظم.(19)

وقد كان أهل المغرب يحرصون على توثيق الأنساب وتشهيرها حفاظا على أصالة النسب عامة والنسب الشريف في الدوحة المحمدية الشريفة خاصة.

حقوق الشرفاء على الناس عند المراكشي الأكمه وابن مرزوق الحفيد:

تعرض المراكشي الأكمه في الباب السادس من كتابه وهو الباب الأخير لحقوق الشرفاء على الناس وحقوق الناس على الشرفاء.(20)

استهل هذا الباب بفصل خص به مكانة المصطفى صلى الله عليه وسلم عند المؤمنين في ثلاثة عشر(13) صفحة، للاقتداء به وإتباع سنته بالنص القرآني والحديث الشريف، ثم تناول

نماذج من محبة الصحابة والسلف الصالح رضوان الله عليهم للمصطفى صلى الله عليه وسلم. وتطرق في الفصل الموالي إلى حقوق الشرفاء وهي:

من تقديره عليه الصلاة والسلام تعظيم أهل بيته وذريته وأمهات المؤمنين، ويستدل بذلك بقول الرسول صلى الله عليه وسلم: « **أنشدكم الله وأهل بيتي... ثلاثا**» وفسر زيد بن الأرقم أهل بيته من آل جعفر وآل عقيل وآل العباس.[21]

ثم يعرض نماذج من حرص الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم على المودة بآل بيت رسول الله، ثم يشدّد المؤلف على من قصر في حقّ آل البيت، وهم كل من مت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأم أو أب وفي هذا القول: "لا خفاء أن ما ذكرنا يقتضي أن للشرفاء وهم كل من مت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأب أو أم، على الناس حقوقا لمتاهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وسريان لحمه ودمه الكريمين فيهم، فهم بعضه، وبعضه في وجوب الإجلال والتعظيم والتوقير والبر والنصيحة كجميعه صلى الله عليه وسلم ميتا كحرمته حيا "[22] ثم يبدأ في تفصيل حقوق الشرفاء على الناس يمكن إجمالها في النقاط التالية:

- إيثار رضاهم على أهوائهم وشهواتهم.
- تعظيمهم وتوقيرهم لدرجة الخشوع والانكماش عند حضورهم.
- الصبر على جفوة من جفا عليهم، وذلك بغض الطرف على زلاتهم وتجاوزاتهم.
- النصيحة لهم ودفع المضار عنهم، مع السعي في مصالحهم وحب الخير لهم.
- التوسل بدعاء طالحهم وصالحهم إلى الله وإلى رسوله، وبذل الأموال والأنفس دونهم.
- الطاعة لهم في الحق ويذكروهم به، وينبهونهم عما غفلوا عنه من أمر دينهم ودنياه برفق ولطف.
- الصلح معهم وترك مقاطعتهم ومدابرتهم ويستروا عرواتهم.

أما عند الإمام ابن مرزوق الحفيد فنص السؤال زيادة على التساؤل عن ثبوت النسب من قبل الأم يضيف: "ويحترم بحرمته الشرفاء ويندرج في سلكهم أو لا".[23]

مع بداية الجواب يؤكد على صحة النسب من قبل الأم ويؤكد على مكانة الشريف حيث قال: »الحمد لله وحده يثبت للمذكور شرف النسب من جهة الأم ويحترم بحرمة الشرفاء ويندرج في سلكهم ويثبت له ذلك ولذريته"[24]

ثم عرض الأوجه العشرة كأدلة وأسانيد على صحة ثبوت النسب الشريف من قبل الأم وفي الوجه العاشر يتطرق إلى منزلة الشرفاء فيقول: "... لمن حصلت له هذه القرابة من علو مرتبتهم وتعظيم قدرهم في الناس لاختصاصهم بالقرب من نبيّنا صلى الله عليه وسلم وما أوجب الله على الناس من بُرورهم ومراعاة حقوقهم وألا يصل إليهم أحد بإذاية أو إهانة لأن في بُرورهم إكراما لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي إهانتهم إنقاص لحقهم".[25]

هذه الحقوق هي حقوق الشرفاء على الناس دون التطرق إلى حقوق الناس على الشرفاء ويمكن حصرها في النقاط التالية:

- حرمة الشرفاء، بتعظيمهم وتوقيرهم.
- سلكهم الخاص بهم أي اجتماعيا يمكن أن نقول بطبقة الشرفاء.
- علو مرتبتهم، لهم منزلة ذات قدر وسمو.
- تعظيم قدرهم، فشأنهم عظيم.
- بُرورهم ومراعاة حقوقهم.
- عدم إذايتهم أو إهانتهم.

فهم يمثلون طبقة خاصة تنفرد ببعض الامتيازات المعنوية والمادية. وما يمكن ملاحظته أنهما المراكشي القسنطيني والحفيد التلمساني يتّفقان على الحقوق نفسها عموما، وان كانت هي

حقيقة أخلاق المسلم مع المسلم الشريف وغير الشريف، مع إمكانية التأكيد عليها مع الشريف، ولكن ليس لدرجة الخشوع والانكماش عند حضورهم كما ذكر ذلك الأكمه. وحتى لا ينتقل هذا التعظيم والتقدير والتكريم إلى التقديس والتغاضي عن زلاتهم واستغلال ذلك سياسيا.

حقوق الناس على الشرفاء عند المراكشي الأكمه وابن مرزوق الحفيد:

وبالمقابل يتطرق المراكشي إلى حقوق الناس على الشرفاء يمكن تحديدها في النقاط الآتية:[26]

- التخلق مع الناس بأخلاق جدهم صلى الله عليه وسلم من صفاته الكريمة وآدابه الحميدة ثم يذكر بأخلاق المصطفى صلى الله عليه وسلم في سيرته.
- عدم الافتخار بشرفهم عن الناس حتى لا تكون عداوة ونفرة مع من ضعف دينه ويكون الاستخفاف بحقه صلى الله عليه وسلم، ثم يذكر أن أكرم إنسان عند الله تعالى هو التقي مصداقا لقوله تعالى:﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾[27]

أما من يفتخر بنسبه دون أن يقدم عملا صالحا فلا فضل له ولا شرف لأن الرسول الكريم قال في حديثه الصحيح:« **من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه** ».[28] فالإكرام والفضل يكون بالعمل لا بالنسب.

أما الإمام ابن مرزوق فهو قد تطرق إلى حقوق الشرفاء على الناس، دون التطرق إلى حقوق الناس على الشرفاء. والإمام المراكشي الأكمه بالرغم من المبالغة في تقدير وتعظيم أصحاب النسب الشريف مثل الخشوع والانكماش عند حضورهم والصبر على جفواهم، فإنه تعرض لحقوق الناس بتخلقهم بأخلاق المصطفى صلى الله عليه وسلم حتى يثبتوا صحة النسب

الشريف ولا يفتخروا به ويتعالوا على الناس ويتكبروا عليهم، ويتميزوا عنهم اجتماعيا ثم يكون التميز سياسيا.

من خلال هذين النصين يتبين لنا أن الدافع للفصل في هذه النازلة هو دافع شرعي وعلمي، للصدع بالحق دون كتمانه أو إخفائه. ولو كان فيه دافع سياسي لحاكم أو لدولة، لتعرض في حقوق الشرفاء على الناس وحقوق الناس على الشرفاء للحقوق السياسية، ومنها الولاء السياسي وأحقية البيعة لهم على غيرهم.

والنسب هذا يثبت حقيقة، إذ لا يمكن إدراكه عن طريق التصوف أو الزهد. ولو كان ذلك لوصل إليه أولياء ومريدين، ويضرب مثالا بشيخ العارفين والزاهدين الشيخ أبو مدين شعيب. ولعل التأكيد على هذه الحقوق والتذكير بها مرده إلى إهمال العامة لها، بعدم تقديرها وإعطاء الاعتبار لها، وهذا النفور بين الشرفاء والعامة هو ما دفع المراكشي الأكمه وابن مرزوق الحفيد إلى التذكير بحقوق الشرفاء على الناس وحقوق الناس على الشرفاء.

خاتمة:

إن نازلة النسب الشريف من قبل الأم قد أخذت جدالا علميا بين فقهاء حواضر المغرب الإسلامي، من تونس إلى بجاية وتلمسان وفاس خلال القرن 8هـ /14م، بين منكر لها ومثبت لها وهناك من وقف بينهما، إلى أن كان الفصل في هذه النازلة مع بداية القرن 9هـ / 15م من قبل الإمامين المراكشي القسنطيني والحفيد التلمساني، ليس بإصدار فتوى فحسب وإنما تقديم الأدلة والحجج لإثبات أحقية النسب الشريف من قبل الأم من الكتاب والسنة وآراء العلماء وأدلة الرأي والعقل. ثم التطرق إلى حقوق الشرفاء على الناس وحقوق الناس على الشرفاء. هذا الجدال يدل على الحراك العلمي والتواصل الفكري والمعرفي بين مختلف حواضر المغرب الإسلامي.

هـذه الحقـوق في عمومهـا هـي ذات أبعـاد أخلاقيـة واجتماعيـة، دون الغـوص في أبعادهـا السياسية، مما يوحي أن الدافع إلى هذه الفتوى هو دافع شرعي علمي، دون دوافع شخصية أو أغراض سياسية، لأن الاهتمام والاعتناء بالشرفاء عاد بقوة خاصة بعد انهيار الدولة الموحدية مع ورثتها المرينيين والزيّانيين والحفصيين وبني النصر خلال القرن 7 و 8 هـ / 13 و 14م ، ثم جاء هذا التأليف خلال القرن 9هـ/15م مما يعكس تراجع هذا الاهتمام بالشرفاء لا لشيء إلا لامتيازهم الاجتماعي.

وعليه فإن التأليف في هذه النازلة يعدّ من الاجتهادات الجديدة الجديرة بالتقدير والدراسة فهو جديد في بابه ومبدع في منهجه. ويبقى المجال مفتوحا للغوص في عمق هذه الأبحاث الدقيقة أمام الباحثين من مختلف التخصصات الشرعية والإنسانية والاجتماعية، مؤرخين وفقهاء وعلماء الاجتماع.

الهوامش

[1]- النوازل: جمع نازلة لغة هي الشّدة تنزل بالقوم، واصطلاحا هي الواقعة الجديدة التي تتطلب حكما شرعيا ليس فيه نص من الكتاب ولا من السنة ولا الاجماع ولا فتوى سابقة، وهي المستجدات الحادثة التي تعضل بأهل العلم ويعانون الشّدة في التعرف على حكمها وهي شاملة لكل الحوادث التي تحتاج لفتوى أو لاجتهاد ليتبين حكمها الشرعي.

-الأصفهاني الراغب :مفردات ألفاظ القرآن الكريم، تح :صفوان داودي، دار القلم، دمشق سوريا،ط1 1424هـ/2004م، ص:421 – الأشقر أسامة عمر سليمان : منهج الإفتاء عند الإمام ابن قيم الجوزية، دار النفائس، عمان الأردن ، ط1 1424هـ/2004م – القحطاني مسفر: منهج استنباط النوازل الفقهية المعاصرة، دار الأندلس الخضراء، جدة السعودية، دار ابن حزم ، بيروت لبنان، ط1 1423هـ/2003م، ص ص: 87،88 - معصر عبدالله: تقريب معجم مصطلحات الفقه المالكي، دار الكتاب العلمية بيروت لبنان 1428هـ/2007م،ص:134 –قندوز ماحي: دراسة وتحقيق الدرر المكنونة

في نوازل مازونة للإمام أبي زكريا يحي بن موس المازوني التلمساني ت 883هـ/1478م ، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف الجزائر 1433هـ/2012م، ج 1، ص: 149.

[2]- يحي بن موسى أبو زكريا: الدرر المكنونة في نوازل مازونة، دراسة وتحقيق قندوز ماحي جامعة تلمسان، قرأه وصححه محند أوإدير مشنان جامعة الجزائر، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف الجزائر، في إطار الذكرى الخمسين للاستقلال ط1 1433هـ 2012م.

[3]- الونشريسي أحمد بن يحي: المعيار المعرّب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والأندلس والمغرب، خرّجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان 1401هـ / 1981م

[4]- محمد المراكشي الأكمه: إسماع الصم في إثبات الشرف من قبل الأم، محمد بن مرزوق الحفيد: إسماع الصم في إثبات الشرف للأم، دراسة وتحقيق: مريم لحلو، مطبعة الشرق وجدة، المغرب، ط2 1426هـ/ 2006م ص ص 7، 11

[5]- نفسه.

[6]- مريم لحلو: تقديم كتاب إسماع الصم، ص ص:11،7

[7]- ابن قنفد القسنطيني أحمد: كتاب الوفيات، تحقيق عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت لبنان 1982 ص :381 رقم 807.

[8]- من مصادر ترجمته: التنبكتي أحمد بابا : نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية ،القاهرة مصر، ط1 1423هـ 2004م ، م 2 ص: 179 رقم589 - التنبكتي أحمد بابا : كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، ضبط النص وعلق عليه: أبو يحي عبد الله الكندري دار ابن حزم بيروت، لبنان ط1، 1422هـ / 2003م ، ص : 376 رقم 501. – ابن قنفد : المصدر السابق ص: 381 – السخاوي شمس الدين محمد: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت لبنان، د ت، م: 04، ج: 08 ،ص:48 – ابن القاضي أحمد: درة الحجال في أسماء الرجال، تح محمد الأحمدي، المكتبة العتيقة، تونس دار التراث القاهرة، ط1، 1391هـ/1971م ص:274 – ابن مريم المليتي المديوني التلمساني كان حيا سنة 1025هـ : البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، تح

عبدالقادر بوباية، دار الكتب العلمية بيروت،ط1، 1435هـ/2014م ص:188 - ابن مريم محمد الشريف التلمساني: البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1986 ص:308 - مخلوف محمد: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع د.ط ، د.ت.،ص:247 – لحلو مريم : دراسة و تحقيق اسماع الصم في اثباث الشرف من قبل الأم لمحمد المراكشي الأكمه ص : 24

[9]- من مصادر ترجمته : التنبكتي : نيل الابتهاج، م2،ص: 171 - ابن مريم : البستان، ص:212 - المقري أحمد: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ،تح إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1968 م: 5، ص:430 -ابن فرحون المالكي: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، دار مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ط1، 1423هـ / 2003م م:2 ، ص:331 -السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، م: 04، ج: 07،ص:51 -بن داود نصر الدين: الحياة الفكرية والتعليمية بتلمسان من خلال علماء بني مرزوق من ق 7هـ /13م إلى ق 10هـ / 16م، كنوز للنشر والتوزيع تلمسان الجزائر، تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية ط1 :2011 ، ص:69.

[10]- المراكشي الأكمه: إسماع الصم، صص :95-222

[11]- ابن مرزوق الحفيد: إسماع الصم، صص: 223-254

[12]- المراكشي الأكمه: المصدر السابق، ص :100

[13]- الونشريسي: المعيار، ج:12، ص:226

[14]- ابن مريم: البستان، ص:143

[15]- لحلو مريم: تقديم كتاب إسماع الصم، ص ص:41، 42

[16]- ابن مرزوق التلمساني أبوعبدالله محمد (الخطيب): المناقب المرزوقية، دراسة وتحقيق سلوى الزاهري، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المملكة المغربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 1429هـ/2008، ص:153.

– نصرالدين بن داود: أسر العلماء بتلمسان ومساهمتها في بناء حضارة بني زيان، وزارة الثقافة قسنطينة عاصمة الثقافة العربية 2015، النشر الجديد الجامعي، تلمسان الجزائر، ص: 128 .

[17]– الآية33 ، سورة الأحزاب.

[18]– الآية23 ، سورة الشورى.

[19]– عن هذا الموضوع يرجع إلى: –القبلي محمد: مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبقال، الدار البيضاء 1987. – فتحة محمد: النوازل والمجتمع أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي من ق 6هـ إلى ق 12 هـ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الدار البيضاء 1999.

[20]– المراكشي الأكمه: المصدر السابق، ص :163.

[21]– مسلم أبو الحسن بن الحجاج النيسابوري: المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل عن رسول الله صلى الله عليه و سلم، خرج الأحاديث صديقي جميل العطار، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت لبنان رقم:2408،ص:1200 ولكن برواية « أذكركم الله في أهل بيتي».

[22]– المراكشي الأكمه: المصدر السابق، ص :182

[23]– ابن مرزوق الحفيد: المصدر السابق، ص:225

[24]– ابن مرزوق الحفيد: المصدر نفسه، ص:225

[25]– نفسه،ص:225

[26]– المراكشي الأكمه: المصدر السابق، ص :195

[27]– الآية13،سورة الحجرات

[28]– صحيح مسلم رقم: 2699 وليس رقم: 2689 كما ذكرت مريم لحلو في تحقيقها لإسماع الصم،ص:199.